قراءات ومراجعات

قراءة في كتاب
البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه*
تأليف: فتحي حسن ملكاوي**

حسان عبد الله حسان***

ما قبل القراءة

لا يمكن لقارئ هذا الكتاب أن يقرأه بعيداً عن السياق الفكري لحركة الإصلاح المعرفي في الأُمَّة، التي يمتد عملها أكثر من قرنين من الزمان، وهمها الأول إعادة بناء العقل المسلم، وبناء الأُمَّة فكرياً، وهو ما بلورته حركة الإصلاح المعرفي في مشروع إسلامية المعرفة وتأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي (١٩٨١م)، فقد جعل المعهد قضية "الفكر" بؤرةً لاهتمامه، ومداراً لانشغالاته القيمية وأنشطته العلمية والفكرية. وقد مثَّلت قضية "الوعي" أيضاً أولوية قصوى في خطة عمله وأهدافه، أمَّا جوانب هذا الوعي البنائي فيتمثَّل في "توعية الأُمَّة بالأزمة الفكرية والثقافية؛ أي توعيتها بموقع أزمة الفكر الإسلامي ومنهجيته من أزمة وجود الأُمَّة الثقافي والحضاري، بل والحياتي كذلك."[١]

ومن معالم هذا الوعي البنائي أيضاً "إدراك معالم العلاقة بين قصور مناهج الفكر الإسلامي من ناحية، وبين غياب مؤسساتها ونظمها، وتخلفها من ناحية ثانية، وتحديد

---

* ملكاوي، فتحي حسن. **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، عمَّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،٢٠١٥م.

** دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشجان الأمريكية عام ١٩٨٤م. المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي،ورئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة.

*** أكاديمي مصري –جامعة دمياط– مهتم بحركة الإصلاح المعرفي في الأُمَّة، متحصِّل على درجة الدكتوراه عن التعليم في إيران بعد الثورة الإسلامية. البريد الإلكتروني: hassan_abdallah1970@hotmail.com

[١] المعهد العالمي للفكر الإسلامي. **الوجيز في إسلامية المعرفة**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٧م، ص٣٢.

معالم العلاقة –كذلك– بين ذلك القصور، وبين ضعف الأُمَّة وفشل جهودها في التحرر والتقدم من ناحية أُخرى، والإحباط المستمر الذي يعيق محاولات النهضة والإنماء والنقل الحضاري."[٢]

إنَّ قضية "البناء الفكري" الذي يمثِّل "الوعي" أُولى درجاتها في سلَّم هذا البناء تعالج إشكالية "بناء الإنسان المسلم" وَفق رؤية معرفية ومنهجية توحيدية، تقابل الرؤية الغربية التغريبية الاستلابية من جهة، والرؤية التقليدية الجامدة الموروثة من جهة أُخرى.

إنَّنا نرى أنَّ عملية البناء الفكري لازمة لتحقيق أمرين اثنين؛ أولهما: مواجهة مظاهر تبديد العقل المسلم والقضاء على أسبابها، والأمر الثاني: تجسير العلاقة بين مصادرنا الفكرية الأصلية، وذاتنا المعاصرة وواقعها المتجدِّد.[٣]

ومنهجياً "يختلف البناء الفكري عن البناء المعرفي ذلك أنَّ العالِم المتخصص الصالح في فنِّه، قد لا يكون –بالضرورة– قادراً على إدراك كليات الحياة ونواميسها، وما بينها من روابط. وقد لا يحمل في رأسه تصوراً متكاملاً للكون ودور الإنسان فيه. وقد لا يصدر في عطائه عن قناعة وانسجام بين نفسه وبين ما يحيط به من ظواهر."[٤]

إنَّ البناء الفكري يحقق للإنسان الإدراك الواعي لمجريات الأمور، والأحكام الراشدة على المواقف المختلفة، والقدرة على الاستنباط والتحليل والوصول إلى نتائج لحل كثير من المشكلات والأزمات التي تواجه الأُمَّة.

إذن، البناء الفكري هو عملية ومهمة ووظيفة؛ عملية يتحقق من ورائها امتلاك العقل المسلم تصوراً متكاملاً عن الكون والطبيعة والإنسان والخالق، يصدر من مرجعيته العليا المتجاوزة (المتجاوزة عن الخلق) التي يستطيع بها (أي بتلك الرؤية) تفسير الظواهر، وردها إلى أسبابها ومسبِّباتها الحقيقية بواسطة هذا الميزان المتجاوز. وهذه العملية (عملية

---

[٢] المرجع السابق، ص٣٢.

[٣] حسان، حسان عبد الله. "تبديد العقل المسلم ..نظرة في البناء الفكري(٢-٢)"، **موقع إسلام أون لاين**، ٢٠١٦/٤/١١م. https://islamonline.net/16177

[٤] عطية، محي الدين. "البناء الفكري... ذلك البُعْد الغائب"، **مجلة المسلم المعاصر**، بيروت، عدد٥٥–٥٦، إبريل ١٩٩٠م، ص٧.

البناء الفكري) تتم خلال تراكمات -بوصفها بناءً- تتولَّد عنه قناعات تصدر عنها عن طريق هذه الرؤية (أو التصور الكلي عن الله والإنسان والكون)، التي تبدأ بالإجابة عن التساؤلات الكبرى، والخلق، والمصير، والخالق، والتكوين، والهدفية، وصولاً إلى التضمين في مناهج العلوم والمعارف، وبرامج التربية والاقتصاد والسياسة والاجتماع.[٥]

وبعبارة أُخرى، يسعى البناء الفكري (وظيفة، ورسالة) إلى إعادة تصميم الذهنيات الإسلامية وَفق منهج متكامل يتوافق مع الفطرة والعقل؛ منهج لا يعاني أزمات في داخله، ولا يسبِّب أزمات لواقعه، منهج يتسم بالشمول، والتوازن، والاتساع، والانفتاح، والتعقُّل.

وبالرغم من أنَّ حركة الإصلاح في الأُمَّة -منذ رفاعة الطهطاوي حتى الآن- كانت تصب في نهر "الأفكار"، فإنَّنا نجد هذه القضية (أي البناء الفكري) أكثر بروزاً لدى مالك بن نبي عندما حصر قضية الأُمَّة في "عالَم الأفكار"؛ إذ ركَّز في تصوره للأزمة الحضارية وما يرتبط بها من عناصر مختلفة على عالَم الأفكار الذي يشهد اضطراباً قيمياً ومنهجياً منذ عصر ما بعد الموحِّدين، ويتمثَّل هذا الاضطراب في الغفلة العقلية والوجدانية لقيمة "الفكرة" وأثرها في التغيير الفردي والاجتماعي، وعمق ذلك التأثير الذي يفوق تأثير أيِّ عامل آخر من عوامل التغيير المادية.[٦]

إنَّ الجانب الفكري هو أساس المشكلة التي نحن بصددها، وإنَّ الأفكار لا تحظى في المجتمع الإسلامي [المعاصر] بقيمة ذاتية تجعلنا ننظر إليها بوصفها أسمى المقوِّمات الاجتماعية، والقوة الأساسية التي تنظِّم قوى التاريخ كلها، وتوجِّهها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها.[٧]

وبناءً على هذا الاعتقاد المعرفي، فإنَّ تعريف المجتمع "المختلف" ينبغي أن يعاد إنتاجه بالتركيز على معيارية "عالَم الأفكار" وقيمة "الفكرة" في مقابل تركيز مناهج أُخرى على المعيارية "المادية"، ومعيارية "الوسائل" و"الآلات". "فالمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً

---

[٥] حسان، **رسالة في البناء الفكري**، مرجع سابق.

[٦] حسان، حسان عبد الله. **النموذج المعرفي للمشروع التربوي الحضاري عند مالك بن نبي**، الرياض: دار الهدى للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م، ص٥٧.

[٧] ابن نبي، مالك. **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دمشق: دار الفكر، ط١١، ٢٠١٤م، ص٨٢.

بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقاره للأفكار. ويتجلَّى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه، بقدر متفاوت من الفاعلية، وفي عجزه عن إيجاد غيرها. وعلى الأخص في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق."[٨]

في خلاصة هذا المدخل للقراءة الحالية لكتابنا، يمكننا الوقوف على بعض المنطلقات الأساسية في هذه القراءة، وهي على النحو الآتي:

أ. البناء الفكري مفهوم أصيل –حتى وإن لم يكن مستخدماً باللفظ– في حركة الإصلاح في الأُمَّة، التي امتد عملها أكثر من قرنين من الزمان.

ب. مفهوم البناء الفكري يتضمن ثلاثة جوانب بوصفه عمليةً، ومهمةً، ورسالةً، ولكل جانب منها مسارات في العمل والنظر والتطبيق.

ت. تراجع قيمة الفكرة وتغييب عالَم الأفكار هما من أهم مظاهر تراجع الأُمَّة وتأخرها.

ث. بعث عملية "البناء الفكري" في الأُمَّة ضرورة توعوية لإعادة تشكيل العقل المسلم، بوصف هذا البناء الوسيلة الناجعة لمعالجة أزمة الفكر والمنهج والحركة.

ج. فعل "البناء الفكري" يحتاج إلى جهد تخطيطي منظَّم يشمل مختلف المستويات الإصلاحية والتنظيرية والتنفيذية لضمان تشكيل عقل جمعي للأُمَّة يدرك واقعه، وحاجاته، ومستقبله، ومتطلباته، وتراثه، وأوجه الاستفادة منه.

تساؤلات الكِتاب وأهدافه

طرح الكاتب في المقدمة عشرة تساؤلات تمثِّل إشكالية، أو استفسارات حاول سبر غورها في هذا المؤلَّف، أو دوافع لهذا العمل التنظيري، وهذه التساؤلات هي: "من هم هؤلاء الذين يتحدثون عن الفكر هذه الأيام؟ ولماذا يتحدثون؟ وما الذي يقصدونه بالفكر؟ وما موقع الفكر بين مفاهيم العلم، والفقه، والثقافة، والفلسفة، والآداب؟ وأين نجد الفكر في برامج التعليم المدرسي والجامعي؟ وكيف نفهم تطوُّر مفهوم الفكر في

[٨] ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار**، ترجمة: بسام بركة،أحمد شعبو، دمشق: دار الفكر، ط١١، ٢٠١٤م، ص٣٦.

التراث الإسلامي؟ وما البرنامج الذي يمكن تقديمه لمن يرغب في أن ينمو بناؤه الفكري حتى يوم يصبح مفكراً؟ وكيف يمكن أن نبني اختباراً نقيس به مستوى البناء الفكري لفرد أو فئة أو مجتمع؟ وما علاقة الفكر باللغة ؟ وما المقصود بالمدارس الفكرية؟"[٩]

أمَّا أهداف الكتاب فتتمثَّل في تكوين مدخل لموضوع "البناء الفكري"، ولعل هذا التحديد المنهجي لا يعفي من كثير من الملاحظات المنهجية التي سنوردها لاحقاً بخصوص منهجية الكتاب وطريقته. فالكتاب يحاول "تقديم فكرة مكثفة للغاية عن موضوع "البناء الفكري"، ربما تصلح أساساً لتكوين مدخل إلى الموضوع، أو رسم خريطة للعناصر الرئيسية فيه."[١٠]

منهجية الكِتاب

يشير الدكتور ملكاوي في المقدمة إلى ملاحظاتٍ عدَّةٍ خاصَّةٍ بطريقته ومنهجيته في تناول موضوع "البناء الفكري"، وهي على النحو الآتي:

أ. عدم الحرص على البحث عن تعريف محدَّد "جامع مانع" لأيٍّ من المفاهيم التي تعرَّض لها الكتاب، ووجوب معالجة معاني المفهوم في سياق الحقل الدلالي الذي ينتسب إليه؛ وذلك ليكون هَمُّ القارئ غير محصور في تذكُّر نصٍّ محدّد للمعنى، وإنما يتسع هَمُّه لاكتساب قدر من الفهم والاستيعاب، والتعبير عن هذا الفهم والاستيعاب بلغة حرَّة مفتوحة على التنوع في الصياغة اللغوية، والتنوع في زوايا النظر، وربما التنوع في صور الانفعال الوجداني.[١١]

ب. عرض بعض المفاهيم والأفكار بصورة إشارات عابرة [بالرغم من أهميتها]، ولا سيما إذا لم يتيسَّر للقارئ الحصول على مراجع للاستزادة من فهمها وتطويرها، وبذلك تُتاح لنا فرصة سانحة لتحديد موضوعات تحتاج إلى التفكير والبحث والدراسة، ويتوافر لدينا أمثلة عدَّة على فرص حقيقية لممارسة البناء الفكري المنشود.[١٢]

[٩] ملكاوي، **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، مرجع سابق، ص١١.
[١٠] المرجع السابق، ص١٣.
[١١] المرجع السابق، ص١٣.
[١٢] المرجع السابق، ص١٣.

ت. عدم الإكثار من ذكر الأمثلة التي تعرض لأسماء الأشخاص، أو الكُتَّاب، أو المؤسسات والجماعات؛ إذ [تركت] هذه المهمة للقارئ ليمارس قدراً من البناء الفكري في هذه المواقف.[١٣]

أصل الكِتاب: الفكرة الملهمة

يذكر ملكاوي أنَّ هذا الكتاب يضم في ثناياه مجموعة من الأفكار التي طُلب إليه عرضها – عفو الخاطر– على طلبة أحد مراكز التدريب الفكري،* ولكنها أثارت اهتمام مجموعات أُخرى من المهتمين ببرامج التنمية البشرية وتمكين الشباب؛ ولذلك تكرَّر عرضها مرات عدَّة، وكانت هذه الأفكار تتبلور مرة بعد أُخرى، وتتزايد الحاجة إلى تدوينها حتى وصلت إلى هذا الحد.[١٤]

محاور الكِتاب وأقسامه

ينقسم هذا الكتاب إلى ستة فصول، إضافةً إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة مراجع، وكشَّاف أبجدي. وقد حمل الفصل الأول عنوان "الفكر في المصادر الإسلامية"، والفصل الثاني عنوان "البناء الفكري ومستوياته"، والفصل الثالث عنوان "البناء الفكري للمجتمع والأُمَّة"، والفصل الرابع عنوان "خرائط البناء الفكري"، والفصل الخامس عنوان "الفكر واللغة"، أمَّا الفصل السادس فتناول موضوع "مراكز إنتاج الفكر، ومختبرات بناء الأفكار".

ويقع الكتاب في ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير، وقد صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمَّان، عام ٢٠١٥م.

---

[١٣] المرجع السابق، ص١٤.

* ألقى الدكتور فتحي مداخلة في ندوة عقدها مركز الرشد بمدينة بنها بمصر عام ٢٠١٢م، تحمل عنوان "البناء الفكري: مفهومه، أهميته،متطلباته. لمشاهدة الندوة، انظر الرابط الإلكتروني الآتي:

- https://www.youtube.com/watch?v=l6cz6y9gyZ8.

[١٤] ملكاوي، **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، مرجع سابق، ص١٥.

الفكر في المصادر الإسلامية

يحاول ملكاوي في هذا الفصل أن يقدِّم تحديداً مفاهيمياً لمصطلح "الفكر" في صورة علائقية؛ أي علاقة الفكر "بالقرآن والسُّنة"، وشكل تضميناته فيهما، وفي التراث الإسلامي وتطوُّره، وعلاقة "الفكر" بمقاصد الوحي (التوحيد، والتزكية، والعمران)، وعلاقة "الفكر" بالإيمان والعلم والعمل، وعلاقة الفكر بالعاطفة. وهو يقدِّم أقرب ما يكون إلى خريطة عامة للفكر في المرجعية الإسلامية، وبعض مضامين تلك العلاقات المتعدِّدة، فضلاً عن رصد بعض المفاهيم المتقاربة، مثل العلم والفقه، التي كانت أكثر تداولاً من مفهوم الفكر في الخبرة الإسلامية. بيد أنَّه -حسب منهجيته- لم يقدِّم تعريفاً للفكر الإسلامي محدَّداً أو مستنبَطاً من هذه العلاقات المعرفية، بحيث يكون واضحاً للقارئ ما يبنى على هذا المعنى في الفصول التالية، ولا سيما أنَّ موضوع الكتاب هو حسب مضمونه ومعناه (البناء الفكري الإسلامي).

ويمكن في هذا الصدد أن نشير إلى جانب من مفهوم "الفكر الإسلامي" وتحديد معناه اصطلاحاً؛ فالفكر الإسلامي هو: "ذلك النشاط العقلي الذي يتخذ من الإسلام منهجاً له في تحركه وفعله واستنتاجه وأحكامه، ويستمد منه الأطر العقدية لتصوراته الأساسية في الله والإنسان والكون (جانب الأصالة)، ويقوم هذا النشاط العقلي -أيضاً- بالتفاعل المستمر مع الوقائع والمستجدات والمتغيرات الإنسانية والكونية بتقديم المنهجية الإسلامية لتوجيه ذلك الواقع وإرشاده، بما يتفق مع تصوراته الأساسية من ناحية وحركة الحياة من ناحية أُخرى (جانب المعاصرة)."[١٥]

البناء الفكري ومستوياته

خصَّص المؤلِّف الفصل الثاني من كتابه للحديث عن البناء الفكري وتمثُّلاته في الاصطلاحات المعاصرة. وقد نظر فيه إلى البناء الفكري بوصفه "عملية" تحدث وَفق تصور معين، وتمر بمراحل متتابعة، وتصل إلى مستويات متعدِّدة، يكون كلٌّ منها علماً

[١٥] حسان، حسان عبدالله. **الفكر الإسلامي والنظام العالمي الجديد**، المنصورة: دار الوفاء، ٢٠٠٢م، ص٢١.

على شخصية من الشخصيات المعروفة في الثقافة المعاصرة، فهناك المفكر، والمثقف، والعالِم، والداعية، والمصلح، والفيلسوف، ولكلٍّ منهم بناؤه الفكري."[١٦]

ولعل أهمَّ ما قدَّمه الكاتب في هذا الفصل يتصل اتصالاً مباشراً بما تناوله في العوامل التي تؤثِّر في البناء الفكري، وهي: الأسرة، والتعليم، والخبرة الذاتية للفرد. وقد عمد في بداية الأمر إلى توضيح طبيعة البناء الفكري من حيث: تغيُّره، وتطوُّره، وعدم ثباته داخل الإنسان الفرد، أو الجماعة، أو المجتمع.

"فالبناء الفكري هو بناء للإنسان يتصف بالحركة والتطوُّر والتغيُّر والنمو من داخل الإنسان؛ إذ تتشكَّل شخصية الفرد الإنساني من بنائه الفكري، وبنائه النفسي. وبينما يُعنى البناء الفكري بالقناعات العقلية والمعتقدات وما تتضمنه من حقائق ومفاهيم ومبادئ ونظريات، فإنَّ البناء النفسي يُعنى بالجانب الانفعالي والوجداني للإنسان، حيث تتحكم الإرادة والدوافع والمشاعر في السلوك العملي للإنسان، وكما أنَّ الإنسان يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب الفكري- العقلي، فإنَّه يحتاج إلى تربية وتنمية في الجانب النفسي- الوجداني، ولكلٍّ من الجانبين مواده وطرقه في التربية والتنمية."[١٧]

"لكنَّ التشكُّل الفكري عند الفرد لا يحدث بصورة مستقلة عن الظروف التي تتشكَّل فيها نفسية الفرد وعقليته؛ فثمَّة عوامل عدَّة تسهم إيجاباً أو سلباً في هذا التشكُّل. ويتحدث التربويون وعلماء النفس عن أثر العوامل النفسية والبيئية في شخصية الفرد، والطريقة التي تتشكَّل فيها هذه الشخصية. ولا شكَّ في أنَّ بعض الأفراد يتأثَّرون أكثر من غيرهم بهذه العوامل، فضلاً عن تأثُّرهم بها في بعض مراحل النمو بصورة أكثر من مراحل أُخرى. ولـمَّا كان المفكر أو الشخص الذي يمتلك قدرات فكرية محدَّدة لا يولَد حاملاً لهذه الصفة، وإنما يبدأ كما يبدأ أيُّ فرد بشري: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ (النحل: ٧٨)، فإنَّه يتأثَّر في مراحل تشكُّله الفكري بعوامل عدَّة؛ فالأسرة توفِّر للفرد بيئة نفسية واجتماعية تؤثِّر في هذا التشكُّل، فيتشرَّب -بوعي، أو من دون وعي- مشاعر

[١٦] ملكاوي، **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، مرجع سابق، ص٧٣.
[١٧] المرجع السابق، ص٧٥.

الانتماء إلى الدين والطائفة والمذهب، وتصبح هذه المشاعر فيما بعدُ حقائق فكرية يجري تبنِّيها بقوة أحيانًا، وتُستنفر من أجلها الحجج والأدلة الفكرية. وقد تؤثِّر هذه البيئة سلباً في الفرد، مُحدِثةً ردَّ فعلٍ عكسياً حين تتولَّد لديه كراهية لما عرفه في بيئته من أفكار، ويبحث جاهداً لنقضها، والتبرؤ منها."[١٨]

وإضافةً إلى العوامل المتمثِّلة في أفكار الأسرة والعائلة، فإنَّ التعليم المدرسي يتضمن أيضاً عوامل نفسية تسهم في تنشيط التشكُّل الفكري أو تحبطه. وفيما يخص الدراسة الجامعية، فإنَّ الفرصة المتوفرة لطالب ما في أن يدرس مادة مع أستاذ متميز ربما تكون عاملاً حاسماً في التشكُّل الفكري لهذا الطالب.

"وخبرات الحياة التي يمر بها الفرد في حياته قد تكون سبباً في بنائه النفسي بصورة معينة، يكون فيها متفائلاً أو متشائماً، فتتلوَّن أفكاره بالتفاؤل أو التشاؤم. ولا شكَّ أنَّ روح التفاؤل أو التشاؤم عند الفرد والجماعة تنتج أفكاراً حاسمةً تكون الأساس في اتخاذ قرارات مهمة، ويكون لها ما بعدها من نتائج إيجابية أو سلبية، يضاف إلى ذلك أنَّ انتماء الفرد إلى مدرسة فكرية أو حركة ذات مرجعية فكرية يؤثِّر في صورة بنائه الفكري."[١٩]

نقد البناء الفكري عند الحركة الإسلامية

أثار المؤلف إحدى القضايا الإصلاحية التي ترتبط بواقع البناء الفكري للأُمَّة، وهي مكانة "البناء الفكري" والأفكار عامَّةً لدى الحركة الإسلامية المعاصرة، ورأى أنَّها في جانب منها تفتقد إلى قيمة "العناية" بعالَم الأفكار وقدرتها على إحداث التغيير بالرغم من أنَّ المشروع الذي تحمله هو فكري بالأساس.

"ومن الملاحظ أنَّ بعض المنتمين إلى الحركات الإسلامية أو الجماعات الإسلامية يشعرون بشيء من الضيق عندما تذكر الحاجة إلى الفكر المتميز القادر على تحقيق التغيير المنشود، فتصبح ألفاظ العقيدة والدعوة والعلم التي يمتلئ بها خطاب الحركة وأدبياتها

[١٨] المرجع السابق، ص٩٧.
[١٩] المرجع السابق، ص ٩٨.

ومناهج تربية أفرادها مصطلحات إسلامية أثيرة، ويرون في لفظ "الفكر" مصطلحاً دخيلاً يراد به أن يحل محل تلك المصطلحات الإسلامية الأثيرة، ويرون أنَّ شأن الفكر والمفكرين هو شأن التنظير الذي لا يحمل هَمَّ الواقع، ويجلس في الأبراج العاجية المنبتّة عن المسائل العملية والمعاناة اليومية التي تصبغ حياة الحركة وأفرادها، مما ولَّد الحاجة إلى التساؤل عن علاقة الفكر بالحركة، وعلاقة الحركة بالفكر، ثم الحديث عن "فكر الحركة، وحركة الفكر."[٢٠]

"فحركات الإصلاح -إذن- تقوم على أفكار إصلاحية، يسعى أصحابها إلى الحركة بها لتغيير واقع الأُمَّة أو المجتمع. وحتى ينتقل الفكر إلى الحركة لا بدَّ من توافر شرطين؛ الأول: أن يتبنى هذا الفكرَ أناسٌ يتحركون به في الواقع القائم، وينتقلون به من الفكر إلى العمل في هذا الواقع، والثاني: أن يُظهر أثر هذا الانتقال تغييراً في الواقع، ويتنزل إليه ليأخذ موقعه في حيِّز التنفيذ. فالفكر الذي لا يجد مَن يتبناه يصعب أن نتصور له حركة في الواقع. وقد يتبنى الفكرةَ شخصٌ واحد، ويعمل بها وحده، أو ينشئ لها مؤسسة لتوسيع دائرة الفكرة وتمثُّلاتها في الواقع، وقد يتبناها مجتمع فتتسع دائرة فعل الفكرة في الواقع. وبطبيعة الحال، فإنَّ حركة الواقع بالتغيرات التي تطرأ عليه، والمشكلات التي تواجهه تكون أساساً لتوليد أفكار للتكيف مع التغيرات، وإيجاد حلول للمشكلات؛ فثمَّة علاقة تبادلية بين الفكر والواقع."[٢١]

"الحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فكر يقودها بكثير من الحكمة والرشد، في ظل التحديات المتجدِّدة، والتطوُّرات المتلاحقة، ولكنَّ هذا الفكر يصعب عليه النمو والتجدُّد من دون توفر قدر كبير من الحرية في "التفكير من خارج الصندوق"، وهي (أي الحركة) بحاجة إلى الاحتفاظ بالعناصر التي يبدو أنَّها "تغرد خارج السرب"، وتأخذ ما تقول به في الحسبان، وهي بحاجة أيضاً إلى الاستعانة بعناصر من خارجها لتنظر في المشكلات التي تحتاج إلى حلول من زوايا نظر لم تعهدها الحركة؛ فالكثير من القضايا التي تحاول فيها الحركة أن تقدِّم رؤيةً ما هي قضايا "معولمة"، تتأثَّر بعوامل داخلية وخارجية كثيرة، وتحتاج

[٢٠] المرجع السابق، ص٩٨-٩٩.

[٢١] المرجع السابق، ص١٠٠.

إلى خبرة متخصصة، واطِّلاع واسع، ومتابعة مستفيضة، قد لا يتاح لأجهزة الحركة أن توفِّرها. وبهذه الصورة تصبح الحركة الإسلامية حركة مفتوحة الفكر، غنية المصادر، سريعة التكيف، تحتضن كفاءات الأُمَّة، وتوظفها، وترشد حركتها."[٢٢]

"حين يسبق الفكرَ الحركةُ، وتقود حركةُ الفكر فكرَ الحركة، يزداد الأمل بتحقُّق الحركة بالرشد والبصيرة، فتتمكَّن من تقديم المبادرات، واقتراح البدائل و"السيناريوهات"، وصناعة الأحداث، والاحتفاظ بجمهور من المفكرين على ما بينهم من تنوع في الرؤى الفكرية، وتكون الحركة في حالة إنتاج متجدِّد يضيف الكثير إلى رصيدها المتنامي من الفكر والعطاء. أمَّا حين تسبق الحركةُ الفكرَ، ويقيِّد فكرَ الحركة حركةَ الفكر، فيخشى أن يكون ذلك مقدمة للبحث عن المبررات والمسوغات والحجج، فتضطر الحركة إلى البقاء في موقع رد الفعل، وانتظار وقوع الأحداث، والتيه في تفسيرها، والارتهان إلى لون من الفكر يكون طارداً للكفاءات الفكرية من الألوان الأُخرى، وتتجمَّد الحركة في موقع الاستهلاك الذي يستنزف ما لديها، فتضطر إلى الاستيراد والتبعية، وتقع في براثن التخبط والاضطراب."[٢٣]

البناء الفكري والمدرسة الفكرية

وفيما يتعلق بالبناء الفكري والمدرسة الفكرية، فقد أوضح الكتاب العلاقة بين البناء الفكري والحالة الجمعية لبعض الأفراد الذين يتبنون أفكاراً مشتركةً تجمع بينهم.

يُعرِّف شريعتي المدرسة الفكرية بأنَّها "مجموع اعتقادات الإنسان التربوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أو الاعتقادات المذهبية، أو غير المذهبية؛ سواء كانت فردية أو جماعية. أو هي -أيضاً- عبارة عن نظام فكري تنظم فيه جميع هذه العقائد والأفكار، حيث إنَّ مجموع هذه الاعتقادات والتفكرات تعطينا فكراً أو مأخذاً واحداً، بمعنى أنَّ هذه الاعتقادات تُكوِّن لنا بناءً فكرياً واحداً. والمدرسة الفكرية هي كذلك عبارة عن نظام فكري يشمل جميع الأبعاد الوجدانية والفكرية في جميع التوجهات الفردية والاجتماعية والتاريخية والسياسية والفلسفية والمذهبية، وهذه الاعتقادات تكون عاملاً لتشكيل "البناء

[٢٢] المرجع السابق، ص١٠٧.
[٢٣] المرجع السابق، ص١٠٧.

الفكري" لتلك المدرسة. وعلى ذلك، فإنَّ هذه الاعتقادات تكون مرتبطةً فيما بينها... إنَّ المدرسة الفكرية أو الفكر يشكل أو يأخذ أو يسري في جميع بدن الإنسان، حيث إنَّه يوجِّه جميع حركاته ولحظات حياته، ولا يمكن للإنسان المتفكر أن يحس بالفراغ أو التناقض أو عدم وجود الهدف في حياته. إنَّ العالِم قد يكون ضحية للحيرة، وكذلك الفيلسوف والمتفكر، أمَّا الإنسان صاحب المدرسة الفكرية فإنَّه لا يصبح عرضة لتلك الأوهام والأفكار؛ لأنَّ جميع المسائل التي تواجهه أو تكون في حياته تكون مسائل واضحة ومفهومة."[٢٤]

ويرى ملكاوي أنَّ "البناء الفكري قد يكون صفةً لمجموعة من الناس تشترك في بناء فكري واحد، أو تنتمي إلى مدرسة فكرية واحدة. والمدرسة الفكرية قد تكون جمعيةً إصلاحيةً، أو حركةً دينيةً، أو حزباً سياسياً، أو جماعةً علميةً في تخصص معين، وقد تكون تياراً فكرياً واسعاً يشمل قطاعات كبيرة من المجتمع، أو تغلب على المجتمع كله. وقد يغلب على أتباع المدرسة الفكرية منهج محدَّد في النظر إلى الأمور، وممارسة التفكير والبحث والسلوك ضمن هذا المنهج، كما هو الحال في المدرسة الصوفية، أو السلفية، أو الفلسفية. وقد تتميَّز مناهج النظر بين المدارس الفكرية في صورة مذاهب فقهية مختلفة."[٢٥]

ونلاحظ أن المؤلف على غير عادته جاء بعبارة للبناء الفكري؛ إذ ذكر: "فالبناء الفكري ضمن المدرسة الفكرية الواحدة هو مجموعة الأفكار (المعتقدات) والآمال (المشاعر) التي تمثِّل رؤية الإنسان الفرد لنفسه، ومجتمعه، وتاريخ هذا المجتمع وحاضره ومستقبله، وواقع العالَم من حوله، وتاريخ هذا العالَم، ومنهج التغيير المطلوب لإصلاح الواقع في مجتمع وحل مشكلاته، علماً أنَّ أعضاء المدرسة الفكرية الواحدة يشتركون بمجمل هذه الأفكار والآمال."[٢٦]

وعن مراحل التفكير جاء توضيح ملكاوي لها كما يأتي: "أما عن مراحل التفكير فقد قسمها الباحثين إلى أربع مراحل؛ الأُولى: أن يتفكر الإنسان في المعارف التي

[٢٤] حسان، حسان عبد الله. **منظومة المفاهيم عند شريعتي**، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠١٦م، ص١٦١-١٦٢.
[٢٥] ملكاوي، **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، مرجع سابق، ص١٠٩.
[٢٦] المرجع السابق، ص١١٦.

يكتسبها بالإدراك الحسي أو التخيل، وهي ما يمكن تسميته بمرحلة الإدراك المادي، والثانية: أن يدقِّق الإنسان النظر في ألوان المعرفة، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالتذوق الانفعالي، والثالثة: أن يتفكر الإنسان بصفات الله الخالق المبدع، ويعترف بفضله وعظمته، ويمكن تسمية هذه المرحلة بالإيمان، والرابعة: أن ينتقل المؤمن من إدراك الصانع الحكيم إلى مواصلة التأمُّل، والذكر، والحُب، والشفافية الوجدانية، فاستشعار وجوده مع الملأ الأعلى، ليرى ما لا يستطيع أن يتحدث عنه، أو يتكلم فيه، وهي ما يمكن تسميتها بحالة الشهود."[٢٧]

البناء الفكري للمجتمع والأُمَّة

يتناول الفصل الثالث من الكتاب أربع قضايا أساسية تتصل بالبناء الفكري للمجتمع والأُمَّة، هي: الهوية الفكرية، والبناء الفكري بين الجمود والتجدُّد، وتسويق الأفكار، وحاجة الأُمَّة إلى القيادة العلمية والفكرية. وقد أبرز المؤلِّف العلاقة بين الهوية الفكرية للمجتمع والأُمَّة والبناء الفكري عن طريق الأساليب والوسائل التي تحدِّد معالم هذه الهوية، وهي برامج التنشئة الأسرية، والتعلم العام، ومؤسسات المجتمع الرسمية أو الأهلية ذات الوظيفة الثقافية أو السياسية والاجتماعية، إضافةً إلى التشريعات والقوانين.

وفيما يخص البناء الفكري للأُمَّة، فقد أشار المؤلِّف إلى التمزقات السياسية والفكرية التي أصابتها نتيجة ظهور الدولة القطرية إبَّان الاستعمار ومعاهدات الاستغلال والتحرُّر التي فَرضت عليها التجزئة والحدود المصطنعة، وهو ما فرَّغ مفهوم الأُمَّة الواحدة من بُعْده الجغرافي والسياسي والاجتماعي –أيضاً– "وفي مجال الحديث عن البناء الفكري للأمة يلزمنا أنَّ نلاحظ مفهوم الأُمَّة لم يعد مفهوماً منضبطاً في أصوله ودلالاته اللغوية أو الدينية؛ فالمجتمع من الناس داخل الدولة قد يُسمِّي نفسه أُمَّة، ويحاول أن يعيد بناء تراثه وأصوله التاريخية لكي يسوِّغ به هذه التسمية. ومن الجدير ذكره أنَّ هذه الظاهرة قد بدأت تغزو المجتمعات البشرية بعد سلسلة من المخاضات العسيرة التي مرَّت بها أوروبا، وبناء الدولة الوطنية ضمن حدود سياسية لم تكن معروفة في السابق في عهد

[٢٧] المرجع السابق، ص١١٨.

الإمبراطوريات، ونظم الحكم الدينية. ثم انتقلت هذه الظاهرة إلى القارات الأُخرى بعد تقسيم تركة الاستعمار إلى دول أو دويلات، لكلٍّ منها حدود سياسية، وعلم ذو ألوان، ونشيد وطني، ونظام حكم. ولا شكَّ أنَّ رسم هذه الحدود –سواء في أوروبا، أو آسيا، أو إفريقيا– لم يكن على أساس التمايز والنقاء العرقي، أو اللغوي، أو الديني، ومع ذلك فقد أصبح كل مجتمع أُمَّةً قائمةً بذاتها (nation)."[٢٨]

"فالأُمَّة الإسلامية الواحدة –كما يريدها دينها الواحد– تتوحَّد في عقيدتها وعباداتها، وتتوحَّد في شعائرها ومشاعرها، وفي أحكامها وأنظمتها الشرعية، وتتوحَّد في آمالها وآلامها، مثل "الجسد الواحد"، ومن ثَمَّ فلا شكَّ أنَّها تملك من وحدة البناء الفكري ما يميِّز أيَّ مجتمع من مجتمعاتها، وأيَّ فرد من أفرادها بهويته وانتمائه إلى هذه الأُمَّة. بيد أنَّ الأُمَّة الممزقة إلى مجتمعات ودول، المختلفة في ولاءاتها، المتخاصمة على حدودها، المتنافسة على مصالحها، لم تنجح في أن يجمعها جامع، ويجتهد كل جزء منها في التميُّز على الأجزاء الأُخرى ولو في مجال "التطاول في البنيان"!"[٢٩]

وكلما اشتركت مجتمعات الأُمَّة في أساليب التنشئة، وبرامج التعليم، وإقامة المؤسسات العامة والخاصة، وأنظمة الحياة، توحَّد بناؤها الفكري، وازداد ثباتاً ورسوخاً.

البناء الفكري بين الجمود والتجدُّد

وفيما يخص علاقة البناء الفكري بحالتي الجمود والتجديد، يؤكِّد ملكاوي طبيعة كلٍّ منهما أولاً؛ فالتجديد حقيقة من حقائق العلم في الإسلام، والله —سبحانه– يبعث في هذه الأُمَّة –في كل عنصر– مَن يجدِّد لها دينها. وحسْبُ مفهوم التجديد فخراً أنَّ كل التيارات الفكرية تدَّعيه، وتُبرِز إسهامها فيه. والتجديد واحد من المفاهيم الكلية في النظام الفكري الإسلامي، وهدف منشود من أهدافه، ومطلب عزيز لضمان بقاء المجتمع قائماً وحاضراً في ساحة الفكر البشري.[٣٠]

[٢٨] المرجع السابق، ص١٢٦.
[٢٩] المرجع السابق، ص١٢٦–١٢٨.
[٣٠] المرجع السابق، ص١٣٠.

"وللتجديد تمثُّلات متعدِّدة؛ فمنه اجتهاد جديد في فهم نصٍّ، أو تنزيل النصِّ على الواقع، ومنه انتقال بالفكر الإسلامي من معالجة المسائل الجزئية في حياة الأفراد والمجتمعات إلى الانشغال بالقضايا الكلية والمسائل العامة للأُمَّة والبشرية، ومنه الإفادة من الوسائل والأدوات التي تستجد في واقع المجتمع الإنساني في تعميم المعرفة بالدين والتبشير به والدفاع عنه، ومنه تطوير المفاهيم وتنظيم الأفكار ضمن ضوابط منهجية تحد من الفوضى الفكرية، وتوفِّر إطاراً مرجعياً للحركة الحرَّة داخل هذا الإطار، من دون انفلات من ثوابت الدين ومقاصده في تحقيق مصالح الأُمَّة، وهكذا."[٣١]

"وإذا كان الجمود هو التمسك بصور من الفهم لم تعد تكفي لبيان صلة الفكر بالحياة، وإصلاح الواقع المعيش، فيفقد الفكر قيمته، ويضطر الناس إلى البحث عن فكر آخر... إذا كان الجمود كذلك، فإنَّ التجدُّد لا يكون في البحث عن نظم جديدة في الاعتقاد والفكر والمناهج والمرجعيات، ثم التخلص من النظم الأصلية القديمة، وإنما يكون الحق في الموازنة والاعتدال بين التمسك بأصول الدين ومبادئه وثوابته، وقواعد الفكر ومناهجه من جهة، والتجدُّد في تطوير الفهم في ضوء المعارف الجديدة، وتنظيم التفكير في ضوء المناهج الجديدة، وتنظيم الفكر في ضوء المسائل الجديدة، واستعمال الوسائل المتجدِّدة الأكثر نفاذًا إلى نفوس الناس وعقولهم، وإقامة الصلة بمستجدات الواقع وتحدياته."[٣٢]

"والذي يعنينا في هذا المقام أمران؛ أولهما أنَّ الجمود والتجدُّد في البناء الفكري هو حالة في الإنسان الفرد، أو الفئة من الناس، أو المجتمع كافةً، وهذه الحالة لا تتصف بالثبات والديمومة، وإنما هي حالة نمو متواصل في مقدار هذا البناء، وحالة تغيُّر متجدِّد في نوعيته. والأمر الثاني أنَّ هذه الحالة للصورة الذهنية عند الإنسان تنتقل إلى الصورة التي يضعها الإنسان عن فهمه لعناصر الفكر وبنيته وعلاقاته. فبعض العلماء يتصورون مجمل المعرفة البشرية في حقل من حقولها جسماً ينمو نحو الخارج، فتتكوَّن طبقات من المعرفة

[٣١] المرجع السابق، ص١٣١-١٣١.
[٣٢] المرجع السابق، ص١٣١-١٣٢.

المتجدِّدة، تتراكم فوق بعضها بعضاً مع مرور الوقت، وتطوُّر الخبرات، وتوالي الاكتشاف، وهكذا ينمو العلم."[٣٣]

البناء الفكري ورأس المال الفكري

إنَّ أهم ما طرحه الكتاب في هذه القضية (حاجة الأُمَّة إلى القيادة العلمية والفكرية) هو مفهوم "رأس المال الفكري"، وهو من إبداعات مالك بن نبي.* ويقوم هذا المفهوم على اعتبار أنَّ "الفكرة" هي أهم ثروة في المجتمع يمكن جَنْيها، وهذا يعني دعم هذه الفلسفة "قيمة الفكرة" في البناء التربوي للإنسان، بما لها من دور في تحقيق الإشعاع الحضاري، وهذا يتطلَّب أيضاً تنقية "عالَم أفكار" النظام التربوي من كل ما عَلِقَ به من اختراقات معرفية وثقافية تأصَّلت فيه، واكتشاف الأفكار الصالحة في تراثنا ومصادرنا الفكرية لتكون سبيلاً للتأهيل التربوي الحضاري.

والأفكار وَفقاً لهذه الرؤية قد تكون عاملاً من عوامل النهوض أو معوِّقاته؛ لأنَّ عالَم الأشياء أيضاً داخل المجتمع يستند في تطوُّره إلى عالَم الأفكار. وهذا الذي جعل مالك بن نبي يؤكِّد أنَّ "الرأسمال الفكري لبلد ما جوهري بالنسبة له بقدر أو أكثر مما هو جوهري رأسماله بالدينار، أو رأسماله بالدولار، أو البترول."[٣٤]

ويرى ملكاوي أنَّ رأس مال الأُمَّة الذي لا ينفد، وهو المتجدد العطاء وهو: "القرآن الكريم وتطبيقاته النبوية، والعلوم الغزيرة التي دارت حولهما، ولكنَّ رأس المال الفكري هذا ليس شيئاً مضى وانقضى، وإنما هو الإطار المرجعي المهيمن الذي يدفع إلى تطوير

---

[٣٣] المرجع السابق، ص١٣٣.

* كثير من الدراسات التربوية المعاصرة ترد نشأة مفهوم "رأس المال الفكري" إلى الفكر الغربي في العقد التاسع من القرن العشرين وما بعده، بالرغم من أسبقية مالك بن نبي في طرح هذا المفهوم والتأصيل الحضاري له في الخمسينيات من القرن نفسه. للتعرُّف على بعض هذه الدراسات، انظر:

– ابن أحمد، محمد. "توظيف البحث العلمي لتنمية مجتمع المعرفة"، ضمن: **التعليم العالي والبحث العلمي في مجتمع المعرفة**، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠٠٦م، ص٦٠٥. وغيرها من الدراسات العربية التي تنحو المنحى نفسه في تأصيل مفهوم "رأس المال الفكري".

[٣٤] ابن نبي، مالك. **من أجل التغيير**، دمشق: دار الفكر، ط٨، ٢٠١٤م، ص٢٩.

الأفكار المتجدِّدة، ويحفِّز إلى استمرار الإبداع والابتكار والاكتشاف، ويعلي من روح التجديد والاجتهاد في كل العلوم الأُخرى: الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية."[٣٥]

خرائط البناء الفكري

يتضمن الفصل الرابع عدَّة خرائط معرفية للبناء الفكري، وهي تحديداً: خريطة المصادر، وخريطة الموضوعات، وخريطة الوسائل، وخريطة الأدوات والقياس، وتاريخ الأفكار، وجغرافية الفكر وضوابط قبول الأفكار أو رفضها.

وفيما يتصل بمصادر البناء الفكري، فقد حدَّد الكاتب أربعة مصادر أساسية، هي: المعرفة المتخصصة، وثقافة التخصص، والثقافة العامة، والمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها الفرد أو الجماعة أو الأُمَّة. ومن أهم ما طرحه الكتاب هنا هو ما يتصل أن: "موضوعات الزاد الفكري الذي يسهم في بناء الرؤية الكلية ويقيم البناء الفكري المتوازن. أنواع متعددة، كل نوع منها يسهم في البناء الفكري:"[٣٦]

"**النوع الأول**: كتابات في الفكر الإصلاحي والنهضوي تعالج قضايا الفكر والبناء الفكري والتفكير وأنواعه ومستوياته، ودراسات في تاريخ الحضارات الإنسانية وشروط قيام الحضارات وأسباب انهيارها، وما يرافق ذلك من صور الصراع الفكري، أو الاقتراض الثقافي والحضاري."

"**النوع الثاني**: مداخل العلوم الاجتماعية والإنسانية، وليس المقصود من أدبيات هذه المداخل في هذا السياق المعرفة المتخصصة في علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، وعلم الاتصال، وغيرها، وإنما الإلمام بالمفاهيم والقوانين والنظريات والتطبيقات العلمية."

"**النوع الثالث**: أدبيات ومداخل في علوم التغيير، ونقصد بها هنا تحديداً: الإدارة، والمنهجية، وعلم النفس؛ إذ يتضمن علم الإدارة تطبيقاته في إدارة الوقت وإدارة الذات

[٣٥] ملكاوي، **البناء الفكري: مفهومه، ومستوياته، وخرائطه**، مرجع سابق، ص١٥٠.
[٣٦] المرجع السابق، ص١٦٢.

وإدارة الجماعات، ويتضمن علم المنهجية تطبيقاته في التفكير والبحث والسلوك والتكامل المنهجي والمدارس المنهجية، ويتضمن علم النفس قضاياه الأساسية في التعلم والنمو والتغيير."[٣٧]

وفيما يخص الموضوعات الأساسية لهذا البناء الفكري فإنَّ خريطته تتضمن ثلاثة مسارات؛ أولها المسار المتصل بالقضايا المثارة المتجدِّدة (فهم الآخر، قضايا المرأة، قضايا الاقتصاد)، وثانيها مسار موضوعات بناء الأُمَّة (اللغة، الدين، التاريخ)، وثالثها مسار موضوعات الرؤية الفكرية (مداخل العلوم، مداخل التغيير، الفكر الإصلاحي والنهضوي،...). أمَّا أدوات البناء الفكري فهي: القراءة الهادفة، والكتابة والبحث والدرس العلمي، والتأمل والتفكير الفردي، ومصاحبة العلماء وأهل الخبرة، والتواصل العلمي البنَّاء.[٣٨]

وفيما يتعلق بمقياس البناء الفكري، فقد أشار الكاتب إلى نوعين من المقاييس:[٣٩]

"مقاييس العمليات الفكرية، أو درجة ممارسة العمليات والمهارات العقلية لفرد أو فئة من الأفراد؛ بغية إعطاء وصف معين لمقدار ونوعية ما يمتلكه الفرد أو الفئة من القدرة على أداء عمليات فكرية معينة. ومقاييس درجة امتلاك محتوى محدَّد من البنية الفكرية حسب الخريطة الفكرية التي تتوزع فيها عناصر هذا المحتوى، أو حسب القيم النسبية للدرجة التي يطلب بها امتلاك هذه العناصر."[٤٠]

الفكر واللغة

يستعرض المؤلِّف في هذا الفصل سبعة موضوعات تتناول علاقة الفكر باللغة، وهي: البُعْد التاريخي لعلاقة الفكر واللغة، والبيان بين الفكر واللغة، ونظريات العلاقة بين الفكر واللغة، والفكر والترقي في المهارات اللغوية، والعبث اللغوي والفكري، والكلام وحديث النفس، والازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية وأثرهما في الفكر والثقافة والهوية.

[٣٧] المرجع السابق، ص١٦٢-١٦٣.
[٣٨] المرجع السابق، ص١٦٧.
[٣٩] المرجع السابق، ص١٧٣.
[٤٠] المرجع السابق، ص١٧٣.

والراجح لدينا أنَّ أهم هذه المحاور الذي له صلة مباشرة بموضوع البناء الفكري هو المحور السابع الخاص بالازدواجية، وكنّا نتمنى أن يأخذ مساحة أكبر في هذا العمل الفكري التنظيري؛ فمسألة الازدواجية تمثّل خطراً كبيراً على تشكيل العقل المسلم وبنائه الفكري، وهي قضية تستحق المزيد من العرض والاهتمام والتفصيل.

يقول المؤلف: "ولكنَّ الازدواجية اللغوية تذكّرنا بما هو أخطر من ذلك بكثير؛ إنَّها الازدواجية الفكرية، [فالإنسان] في مجتمعنا المعاصر يعيش في محيط من الثقافة التي تسهم في تشكيلها مؤسسات المجتمع المختلفة، ولا سيما أجهزة الإعلام والتواصل المعاصرة، وهي ثقافة تسهم إسهاماً فاعلاً في طريقة تفكير الإنسان. ومع أنَّ [الإنسان] في مجتمعاتنا ينشأ ضمن هوية وانتماء ديني تقليدي يتحدث عن المثال الذي ينبغي التوجه إلى تحقيقه، فإنَّ الثقافة المعاصرة ترسِّخ واقعاً بعيداً عن هذا المثال، تغلب عليه سطوة المادة والمال والسياسة."[٤١]

إنَّ تناول هذا الموضوع لم يمتد بصورة واضحة إلى الآثار الثقافية. وتفصيل هذا الأمر –وهو ما نود أن نلفت نظر الكاتب إليه– أنَّ قضية الازدواجية هي أعمُّ من تلك العلاقة اللغوية أو الموضوع اللغوي وإن كان أصيلاً فيه؛ لأنَّه امتد إلى النظام المعرفي، والتشكُّل العقلي الإسلامي، والنظام التربوي والتعليمي، وحتى النظام الاجتماعي نفسه، ونظام القيم، وكلها موضوعات جديرة بالتناول في فصل كامل مستقل؛ لأنَّها أكثر ما تتصل بحالة العقل المسلم، وحالة بنائه الفكري الذي فرض هذا الانقسام وتلك الازدواجية أكثر من قرنين من الزمان.

مراكز إنتاج الفكر ومختبرات بناء الأفكار

من الإضافات المهمة التي حواها هذا الكتاب تطرُّقه في الفصل السادس (الأخير) إلى موضوع مراكز البحوث والتفكير، وأهميتها في العمل الفكري عامَّة، ودورها في تطوير حركة الفكر وفكر الحركة. وقد احتوى هذا الفصل على ثمانية محاور وخاتمة، هي: تطوير الأفكار بين الإبداع الفردي والعمل المؤسسي، وأهمية التخصص والعمل في فرق البحث،

[٤١] المرجع السابق، ص٢٤٢.

ونشأة مراكز البحوث واتجاهات عملها، والبحث في موضوع مراكز البحث، ومراكز البحث في الإعلام، ودور مراكز البحوث في العالم العربي، وقضايا المسلمين في مراكز البحث الغربية، والتعريف ببعض مراكز البحث في العالم.

وقد انتقد الكتاب حالة مراكز البحوث في العالم الإسلامي المعاصر بالرغم من أصالة هذه المراكز في الحضارة الإسلامية، والنظر إليها بوصفها مقياساً لمدى اعتبار المجتمع قيمة الفكرة والمفكرين. "وإذا كان وجود المراكز الفكرية يمثِّل ظاهرة غنى في البناء الفكري في أيِّ مجتمع، فإنَّ مجتمعات العالَم الإسلامي مجتمعات فقيرة فكرياً إلى حد كبير، والحاجة ماسة إلى إنشاء كثير من هذه المراكز الفكرية المتخصصة؛ فهذه المراكز تستطيع أن تؤدي دوراً مهماً في توليد الأفكار وتطويرها من خلال المشاريع البحثية الجماعية، بالإضافة إلى أنَّها توفِّر أساساً معرفياً لاتخاذ القرارات المناسبة، أو تزويد متخذ القرار بالمسوغات اللازمة لاتخاذ قراره."[٤٢]

ومن المحاور الفرعية التي يمكن تضمينها هذا الموضوع المهم عند إعادة طبع الكتاب: الوظائف الحضارية لمراكز البحوث والتفكير في العالم الإسلامي المعاصر، وأهم الاختصاصات الموجَّهة إليها، والمسؤوليات الحضارية التي يجب أن تضطلع بها تبعاً للتحديات الفكرية المعاصرة، لا سيما أنَّه توجد نماذج عملية واقعية ممثَّلة في الإطار الاجتهادي لتجربة المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ونحن بحاجة أيضاً إلى تحديد الحاجات المعرفية والمرتكزات الفكرية لهذه المراكز، وبيان دورها سواء في التشكيل الثقافي العام للأُمَّة، أو الاجتهاد الفكري والتجديد المعرفي في أحد ميادين الفكر الخاصة، ولا سيما أنَّ مفهوم مراكز الفكر والبحوث يتسع ليشمل البُعْد التوعوي، والثقافي، والعلمي المتخصص، والاستراتيجي السياسي. وأخيراً فنحن بحاجة إلى بيان دور الجامعات العربية والإسلامية في تأسيس مراكز البحوث والتفكير اللازمة لنهضة المجتمع والأُمَّة.

---

[٤٢] المرجع السابق، ص٢٦٦.

خاتمة القراءة

كتاب "البناء الفكري" هو جهد تنظيري مهم في مجال بناء الفكر؛ أي في مطلق البناء الفكري. وبالرغم من ملامسته –مثلاً– لبعض قضايا الفكر الإسلامي، فإنَّه يظل كتاباً عن البناء الفكري، وليس في البناء الفكري. وكلنا أمل أن يعمل المؤلِّف على متابعة ثانية يقدِّم لنا فيها وللأُمَّة ما يتصل بهذا الموضوع، وفيه يعرض لنا بصورة فعلية كيفية بناء العقل المسلم ومحاور ذلك البناء، وقضايا البناء الأساسية. وأعمدة البناء ومرتكزاته، والجدل بشأنها من خلال أفكار الإصلاح. ونحن لا ننكر أنَّ الكتاب قد تعرض لكثير من هذه القضايا، إلا أنها بحاجة إلى مزيد بحث وحفر؛ لأنَّ الكتاب –كما ذكرنا– كان عن البناء الفكري من حيث التنظير والتقعيد، وحسبه أنه قام بهذا لإحداث تراكم معرفي في هذه المفردة الغائبة في تاريخ الأفكار، التي من شأنها التأسيس لتصوّر إسلامي قادر على تفحّص الذات واستيعاب المنظومات المعرفية المختلفة، أملاً في البناء الحضاري.